بَغدَاد في العصر العباسي

غاي لو سترينج

ترجمة: ناطق فرج

الملخص:

يقدّم غاي لو سترينج في كتابه «بغداد في العصر العباسي» دراسة تاريخية وجغرافية لإعادة بناء صورة بغداد في العصور الوسطى، اعتماداً على مصادر عربية مبكرة، أبرزها مخطوطة ابن سرافيون وكتابات اليعقوبي والطبري.

يركّز المؤلف على نشأة بغداد في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، موضحاً أنَّ قيامها جاء نتيجة حاجة الدولة العباسية إلى عاصمة جديدة بعد سقوط الأمويين لتكون أفضل موقعاً من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية من دمشق.

يتناول الكتاب الظروف السياسية التي سبقت تأسيس المدينة، منذ انتقال مركز الحكم من المدينة المنوَّرة إلى الكوفة ثمَّ إلى دمشق في العهد الأموي، وصولاً إلى قيام الدولة العباسية. كما يشرح أسباب اختيار موقع بغداد على نهر دجلة، مبرزاً مزاياها الزراعية والتجارية، وارتباطها بشبكة من القنوات المائية جعلتها مركزاً اقتصادياً حيوياً.

ويبحث المؤلف في أصل اسم «بغداد»، مع الإشارة إلى تسميتها الرسمية «مدينة السلام». كما يناقش الروايات التاريخية والأسطورية المرتبطة بتأسيسها، مثل قصة «مِقلاص».

ويخصّص الكاتب جزءاً مهمّاً لوصف «المدينة المدوَّرة» التي شيّدها المنصور، بما ضمّته من جامع المنصور، وقصر الباب الذهبي، والأسوار والأبواب الأربعة (باب الكوفة، باب البصرة، باب الشام، باب خراسان)، إضافة إلى الدواوين والمرافق العامة. ويعتمد في ذلك على تحليل دقيق للنصوص الجغرافية والتاريخية، إلى جانب الخرائط الحديثة التي استعان بها.

ويخلص سترينج إلى أنَّ بغداد، رغم ما تعرّضت له من حروب وتدمير، خاصة على يد المغول سنة ١٢٥٨م، ظلَّت عبر القرون عاصمة بلاد الرافدين ومركزاً حضارياً بارزاً في العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: تأسيس، عاصمة، تاريخ بغداد، عواصم الإسلام.

تقديم

في صيف عام ١٨٨٣ حظيتُ بفرصة سعيدة إذ تعرَّفتُ إلى الراحل السير «هنري رولنسون» Henry Rawlinson، والكتاب الذي صدر أخيرًا إنَّما يرجع الفضل في ظهوره إلى اقتراحه. فقد لفت السير "هنري" انتباهي أوّل الأمر إلى مخطوطة ابن سِرافيون[1]، التي يحتفظ المتحف البريطاني بنسخة فريدة منها، وحثَّني على استغلالها في دراسةِ طبوغرافيةِ بَغدَادَ في العصور الوسطى؛ مؤكِّدًا لي أنَّه، وبالاستعانة بالمقالات الكثيرة الواردة في هذا الموضوع ضمن «المُعجَم الجغرافي الكبير» لياقوت الحموي وسائر المصادر المبكّرة، فإنَّ إعادة بناء مخطَّط المدينة القديمة أمرٌ ممكن تمامًا. وقد نشرتُ نصَّ «ابن سِرافيون» في «مجلة الجمعيّة الآسيوية الملكية» (كانون الثاني/ يناير، نيسان/ أبريل، وتشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٩٥).

غير أنَّ شواغل أخرى حالت دون إتمام هذا العمل؛ إذ استغرق وقتًا أطول بكثيرٍ ممّا كنتُ أتصوَّر من تمحيصِ الكمِّ الهائل من المعلومات المتناثرة في كتابات الجغرافيين والمؤرّخين العرب الضخمة وتنظيمه. وحتى الآن لا يزال بالإمكان إضافة مادَّة وافرة من إشارات عارضة في «تاريخ الطبري» المتأخّر لو أنَّ فهرس هذا السفر العظيم كان متوفِّرًا، لكنَّ نشره للأسف لم يتم بعد.

المصادر، في الحقيقة، غير شحيحة، غير أنَّ الأساس الحقيقي لإعادة بناء المخطَّط الوسيط هو وصف قنوات بَغدَاد الذي وضعه «ابن سِرافيون» نحو سنة ٩٠٠م. إذ لو جمعنا بين شبكة القنوات المائية كما وصفها الكاتب، مع الطرق الرئيسة المتشعبة كما ذكرها معاصره «اليعقوبي»، لأصبح من الممكن رسم أحياء بَغدَاد القديمة، واستكمال تفاصيلها من روايات وردت في مصادر أخرى، ولو أُخذت كلًا على حدة لبدت مجزأة وغير كافية لإعادة بنائها بشكل منهجي.

وعلى حدّ علمي، لم يسبق لأحد أن حاول كتابة تاريخ كامل أو رسم مخطَّط لعاصمة الخُلَفَاء العباسيين. وقد بدأ بالفعل المستشرق الراحل «أ. فون كريمر» A. Von Kremer بالعمل في كتابه «التاريخ الثقافي للشرق في عهد الخُلَفَاء» (المجلد الثاني، ص ٤٧-٩٤)، غير أنَّه لم يتجاوز فصلًا واحدًا تناول فيه (اعتمادًا على اليعقوبي) وصف المدينة المدوَّرة التي أنشأها المنصور، التي أصبحت لاحقا بمنزلة قلب بَغدَاد، مثلما غدت «سيتي أوف لندن» بالنسبة إلى لندن الكبرى التي تحيط بها الآن أميالًا من كلِّ جانب.

أمّا الخرائط والمخطَّطات المرفقة فتبيّنُ ما استخلصَه من توزيع مختلف أحياء المدينة كما ورد في مصادرنا. وإنَّني على درايةٍ كاملة بما فيها من نقائص، وهي معرَّضة للنقد لكلِّ مَن يودّ مراجعة الأدلَّة. ومن المبرهن أنَّ مجرى نهر دجلة قد تغيَّر كثيرًا في الألف سنة الماضية، لكن يصعب تحديد موضعه الدقيق في كلِّ فترة بعينها.

وفيما يتعلَّق ببَغدَاد الحديثة وضواحيها فقد اعتمدتُ على المخطَّط الكبير للمدينة الذي نشره القائد «فيلكس جونز» Felix Jones في مذكراته (سجلات حكومة بومباي، رقم ٤٣، السلسلة الجديدة، ١٨٥٧). أمّا الريف المحيط ومسار دجلة فقد أخذتُهما من «خريطة بابل القديمة»

(١) هو يحيى (أو يوحنا) بن سرافيون البغدادي. طبيب في بغداد عالج خلفاء الدولة العباسية ووزراءهم.

في ستة ألواح، التي وضعها «تريلاوني ساندرز» Trelawney Saunders اعتمادًا على مسوحات «فيلكس جونز، بيوشر، كولينغوود، وبومونت سلبي»، وقد نشرها «ستانفورد» عام ١٨٨٥ بمقياس ٤٠٠٠ ياردة للبوصة.

تبقى مخطَّطاتي لبَغدَاد العصور الوسطى، إلى حدٍّ ما، تجريبية؛ لكن فيما يتعلَّق بالخطوط الرئيسة للطرق، والمواقع النسبية للأحياء المختلفة، أمرٌ من غير المرجَّح أن يثار، لأنَّ الدلائل متكاملة إلى حدٍ ما. وما هو مطلوب الآن بشكلٍ خاص هو التنقيب الميداني في الموقع للكشف عن مكان جامع المنصور على الضفة الغربية من نهر دجلة، والموقع الدقيق لجامع الرصافة على الضفة الشرقية. ويبدو أنَّ هذين المسجدين كانا قائمين حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وبما أنَّ البلاط والآجر المحروق قد استُخدما بكثرةٍ في بنائهما، فإن العثور على بقايا معتبرة من جدران أساساتهما مؤكَّد، لو جرى فحص أكوام الأنقاض على ضفَّتي دجلة فوق بَغدَاد الحديثة بعناية.

غاي لو سترينج

نادي أثينيم، شارع بال مال/ لندن

آب (أغسطس) عام ١٩٠٠

بَغدَاد في العصر العباسي الأول

تأسيس بَغدَاد

من المعروف أنَّ عواصم الإسلام الأولى كانت المدينة والكوفة ودمشق، ومع سقوط الدولة الأموية برزت الحاجة إلى إنشاء عاصمة جديدة للعباسيين. في هذا الفصل سنتناول الفرق بين مدينة الهاشميّة قرب الأنبار ومدينة الهاشميّة الواقعة بين الكوفة والحيرة، كما نبحثُ في مجرى نهري دجلة والفرات في العصور الوسطى، مع التركيز على اختيار المنصور لموضع بَغدَاد: فهل كانت بَغدَاد في الأصل مدينة آشورية؟ وما أصلُ تسميتها؟ وكيف استقرّ رأي المنصور على هذا الموقع؟ فضلًا عن المزايا الاستراتيجية لموقعها، وسنعرّج كذلك على أسطورة «مِقلاص» وسوق بَغدَاد.

إنَّ تاريخ بَغدَاد كعاصمة يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ صعود الخُلَفَاء العباسيين وانحدارهم؛ ففي الشرق يبدو أنَّ تأسيس كلِّ سلالة جديدة لعاصمة جديدة كأنَّه أمرٌ شبه حتمي. ففي أوائل السيرة الإسلامية، تؤرِّخ سنة الهجرة للحدث الذي اضطُر فيه النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى مغادرة مكة والإقامة في قرية صغيرة تُدعى يثرب. وكان هذا التحوُّل إيذانًا بنقل المركز السياسي للعرب من المدينة التجارية العريقة إلى يثربَ التي سُمّيت منذئذٍ «المدينة»، أي «مدينة النبيّ». ومن كونِها بلدة إقليمية صغيرة، ارتقت فَجأة لتصبحَ عاصمة الإسلام، والمقرَّ الذي انطلقت منه حكومة أقرَّتْ قوانين جديدة على قبائل الصحراء، وحوَّلت جزيرة العرب كلَّها إلى أُمَّة واحدة.

أما الخُلَفَاء الثلاثة الأوائل أبو بكر وعمر وعثمان فقد واصلوا الحكم من المدينة، بينما انتقلت عاصمة الإسلام في زمن، الخليفة الرابع، الإمام علي بن أبي

طالب إلى الكوفة في العراق مما أخلَّ بالتوازن القبلي الذي أرساه أسلافه... ولكن تبيَّن له، بعد فوات الأوان، أنَّ أكثرية سكان الكوفة غير موثوقين، ميّالون إلى العصيان ومعادون لدعواه الدينية.

أمّا معاوية، الذي أصبح منافس علي في الخلافة، فقد عُيّن واليًا على الشام منذ أكثر من عشرين عامًا في عهد عمر بن الخطاب، وقد أدرك مبكرًا مآل الصراع، فعمل على توطيد سلطانه في الشام باستقدام أقاربه وأتباعه. وحُسم النزاع بيد قاتل متعصّب؛ فقُتل علي بن أبي طالب في الكوفة، مستهلًا بموته سلسلة طويلة من شهداء الشيعة، بينما انفرد معاوية بحكم الإسلام بوصفه أوَّل خليفة من بني أُمية، واتخذ دمشق مقرًا له، فتحوَّلت المدينة من عاصمة إقليمية إلى حاضرة خليفة المسلمين.

كانت دمشق ملائمة لتكون مقرَّ الحكم الأُموي. فهي قائمة في أرض خصبة قريبة من الحجاز حيث ما زالت مكة والمدينة مركزَي القوة الدينية، وتحميها من الشرق الصحراء العربية التي وفَّرت للخُلَفَاء الجنود والأنصار من قبائلهم البدوية. كما كانت قريبة من الحدود البيزنطية، ومنها انطلقت الجيوش العربية طوال تسعين عامًا تغزو آسيا الصغرى الشرقية، موقعة الغارات المتكرّرة على رعايا الإمبراطور البيزنطي. وأما كون دمشق لا تقوم على نهر صالح للملاحة، فلم يكن عائقًا في تلك المرحلة المبكرة من التجارة الإسلامية، إذ كان النقل يعتمد على طرق القوافل عبر الصحراء، وكان حجم البضائع ضئيلًا بحيث يمكن للجِمال حمله.

ومن بين العوامل الكثيرة التي أفضت إلى سقوط الأُمويين، يبرز سببان رئيسان: أولهما انهيار النظام القبلي العربي الذي اعتمدت عليه القوة العسكرية للأُمويين في دمشق، وثانيهما السخط الشعبي من سوء معاملة «الموالي»، أي المسلمين الجُدُد من غير العرب، وأغلبهم من رعايا الدولة الفارسية الساسانية السابقة. فقد فاق هؤلاءِ العربَ عددًا وعقلًا، وقبلوا الإسلام بحماسة، ولكن وفق رؤيتهم الخاصة التي عدَّها العرب بدعة. وقد استغلَّ العباسيون، بمهارة، الخلافات الفكرية بين الفرس وأهل الشام، أولئك الذين على الرغم من انحلالهم الأخلاقي وشغفهم بالشراب، ظلُّوا أرثوذكسيين في عقيدتهم، وأعرابًا في نزعتهم[٢].

وفي عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) هُزم آخر خُلَفَاء بني أمية، مروان الثاني، وقُتل. أما أوَّل خُلَفَاء العباسيين، أبو العباس السفاح، فقد استحق لقبه «سفَّاك الدماء»، إذ قضى سنوات حكمه الأربع في مطاردة كلِّ ذكرٍ من ذرية بني أُمية وقتلهم، ولم ينجُ منهم إلا فتًى واحدٌ هرب إلى الأندلس، حيث أسَّس الدولة التي عُرفت فيما بعد بخلافة قرطبة. وفي عام ١٣٦هـ (٧٥٤م) خَلَفَ أبا العباس السَّفاح على العرش أخوه أبو جعفر المنصور، وفي اثنين وعشرين عامًا من حكمه شيَّد مدينة بَغدَاد، ونظَّم فيها حكومة العباسيين التي، بعد أن أرسَت دعائم سلطانها، دامت خمسة قرون على ضفاف دجلة، لكنَّها كانت تعاني مدًّا وجزرًا من القوةِ والانحطاط.

لقد كانت الحاجة إلى عاصمةٍ جديدة أمرًا مُلحًّا للدولة الجديدة. فدمشقُ، وقد غصَّت بأتباع الأُمويين، لم تعد تصلح، فضلًا عن كونها بعيدة عن فارس، مصدر القوة الأساسِ للعباسيين، وقريبة جدًا من الحدود البيزنطية، حيث بدأت الهجمات

---

(٢) وقد ناقش المستشرق الهولندي «جي. فان فلوتن» G. Van Volten، في كُتَيّب حديث، الأسباب التي أدت إلى الإطاحة بالأمويين، والثورة التي استفاد منها آل العباس بمهارة للحصول على الخلافة.

المسـيحية تنطلق منها في أواخر العصر الأموي ثأرًا لهزائمَ قديمة.

لقـد بـدأ يتضح أيضًـا أنَّ فتوحات الإسـلام في المستقبل سـتتجه شرقًا نحو آسـيا الوسطى، أكثر منها غربًا على حسـاب البيزنطيين. كانت دمشـق، الواقعـة على مرتفعات الشـام، تبـدو كأنَّها تهيمن على البحر المتوسـط وتتطلَّع غربًا، غير أنَّ العاصمة الجديـدة التي سـتحلُّ محلَّها كان لا بُـدَّ أن تتوجَّه شرقًا، وأنْ تكون قريبة من بلاد فارس، وأنْ تتصل بالبحر عبر مجرًى مائي يفي باحتياجات التجارة، ومن ثمَّ فقـد كان كلُّ شيءٍ يشـير إلى اختيار موقعٍ عـلى الفـرات أو دجلة، ولـم يتأخر العباسـيون في حسم قرارهم.

وأثنـاء الفتـح الإسـلامي الأوَّل لبـلاد مـا بـين النهرين، أُنشـئت مدينتان عربيتان لتكونا حاميتين للجند: البـصرة قـرب مصـب النهريـن التوأمين، والكوفـة على شـاطئ الفـرات، حيـث كان طريق القوافـل الصحراوي القـادم من الحجـاز إلى بلاد فارس ينفذ إلى السهل المزروع من بلاد الرافدين.

وكان الخليفة السَّـفَّاح، حين لا ينشغل بالقتال وسـفك الدماء، يقيم في قصرٍ أسـماه «الهاشـمية» (نسبةً إلى جدِّه الأعلى)، بناه بجوار المدينة الفارسية القديمة الأنبار، على الضفة الشرقية للفرات، بالقرب من تفرُّع النهر الكبير، الذي عُرف لاحقًا باسم نهر عيسى، المتجه نحو دجلة. وفي هذه الهاشـمية (قرب الأنبار) تُوفي أول خُلَفَاء بني العباس سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٤م؛ وبعـد أن تولى أخوه المنصور الخلافة بفترة قصيرة، بدأ ببناء مقرٍّ آخر له بالاسم ذاته.

ووفق إحـدى الروايات، فإنَّ الهاشـمية الثانية كانـت مدينـة قائمة بـين الكوفة والحـيرة، المدينة الفارسـية القديمة؛ أي على الضفة العربية للفرات، ليس بعيدًا عن الموضع الذي كان النهر فيه في القرن الرابع الهجـري/ العاشر الميلادي ينفتح ويتبدَّد في المسـتنقع العظيم. بينما تضعها رواية أخرى قرب مدينة ابـن هُبيرة، وهذه كانت ملاصقة للكوفة، ولا ينبغـي الخلط بينها وبين "قصر ابن هُبيرة"، وهي مدينة ذات شـأن تقع أعلى الفـرات من الكوفة على ضفَّتـه الشرقية[٣]. لكنَّ تحديد الموضع الدقيق لتلك الهاشـمية لا أهمية كبيرة له، إذ إنَّ المنصور سرعان ما هجـره لعدم ملاءمته ليكـون عاصمةً. فقد كان قريبًا جدًا من الكوفة، حيث يسكنها جمهور شيعي متعصّـب، وحاميـة من القبائـل العربيـة اعتادت إثارة الشـغب وإحداث القلاقل. وزاد كره المنصور للهاشـمية بعد ثورة «الراوندية»، حين أحاط جمعٌ من هؤلاء الغلاة الفرس بقصره وأصرُّوا على عبادته بوصفـه إلهًا. فأنكر الخليفة عليهم تأليههم له، فما كان منهـم إلا أن أحدثـوا فتنةً وهاجمـوا الحرس، حتـى كاد المنصور يفقد حياته بأيدي مَن تظاهروا بتقديسه.

وإذا كان لا بُدَّ من نقل عاصمة الإسـلام إلى بلاد

---

(٣) اليعقوبـي، ص ٢٣٧؛ الطـبري، جـــ ٣، ص ٢٧١. إنَّ تكرار أسـماء الأماكن في جوار بعضهـا البعض يُعدُّ من الصعوبات التـي تواجه الجغرافيـا العربية في العصور الوسـطى. وقد وُضعت معاجم للأسـماء المتشابهة التي تشـترك في تسـمية واحدة، مثـل معجم ياقوت المسـمّى المشترك ـ وهذه المعاجم نافعة، وإن كانت نادرًا ما توفّر معلومـات كافية عن الأماكـن الثانوية الأقـل أهمية. إنَّ وجود «هاشـمية» في الأنبار وأخـرى في الكوفة أمر ثابت بالمقارنة بين مصدرين معتبرين مثل كتاب العيون (ص ٢١١، ٢١٤، ٢٣٦) مـع المقاطـع التـي أوردها الطبري واليعقوبي المشـار إليهمـا أعلاه. كما يتضـح أيضًا من مقطع الطبري أنَّ مدينة ابن هبيرة القريبة من الكوفة لم تكـن هي ذاتها قصره، وهو المكان الذي ارتقى فيما بعد ليصبح مدينة ذات شأن، قائمة على الطريق الرئيس من بغداد إلى الكوفة.

ما بين النهرين، فإنَّ مزايا الموقع على نهر دجلة، بدلًا من نهر الفرات، كانت واضحة. فالعاصمة الجديدة ستكون في قلب أرض خصبة، لا على تخوم الصحراء كما في الكوفة وما جاورها، حيث تصل الرمال القاحلة حتى ضفة الفرات الغربية. وبفضل نظام من القنوات استُخدمت مياه الفرات لريّ الأراضي بين النهرين، فيما خُصِّصت مياه دجلة لأراضي ضفته الشرقية الفارسية، وهكذا أُدخلت كامل المنطقة الممتدة من صحراء العرب غربًا إلى جبال كردستان شرقًا في نطاق الزراعة، فتحوَّلت إلى جنة وارفة. ثمَّ إنَّ مجرى دجلة الأسفل، قبل التقائه بالفرات، كان أصلح للملاحة من الفرات، لأنَّ قنوات الريّ الكبرى، بتصريفها فائض مياه الفرات إلى دجلة، كانت تجرف مجرى هذا الأخير وتحافظ على ممرّه المائي صالحًا لعبور المستنقع العظيم الواقع فوق مصبِّ البصرة مباشرة.

ولفهم طبيعة المشكلة التي واجهت المنصور في بحثه عن موضعٍ ملائم للعاصمة الجديدة، ينبغي أن نتذكَّر أنَّ دجلة والفرات أيام العباسيين لم يكونا يسيران وفق مجاريهما المرسومة في خرائطنا الحديثة. فبحسب ما رواه «ابن سرافيون البَغدَادي» كان مجرى الفرات الرئيس على مسافة قصيرة فوق خرائب بابل، يأخذ القناة الغربية، ثمَّ بعد مروره بالكوفة بقليل يصبُّ مياهه في المستنقع العظيم، الذي شكَّل آنذاك عنصرًا مهمًا في الجغرافيا السياسية والطبيعية. أما دجلة، فعندما يبلغ خطَّ عرض الكوت – العمارة (على بُعد نحو مائة ميل جنوب بَغدَاد)، كان ينحرف جنوبًا ويمرُّ بواسط عبر المجرى المعروف اليوم باسم «شط الحيّ»، ثمَّ يدخل أيضًا المستنقع العظيم. لكن، بخلاف الفرات، ظلَّ مساره هناك ظاهرًا في سلسلةٍ من البحيرات الملاحية عُرفت بالـ "هور". وأخيرًا، كانت كلُّ مياه النهرين المتجمِّعة في المستنقع تنصرف في قناة تتجه مباشرة إلى رأس مصب المدِّ والجزر، الذي كان بعد مروره بالبصرة يصبُّ في الخليج (الفارسي/العربي) عند عبادان[٤].

---

(٤) في الوقت الحاضر، يتّجه نهر دجلة، أسفل الكوت – العمارة، بدلًا من جريانه عبر واسط، إلى مجرى أكثر شرقًا، وبعد أن ينعطف انعطافةً كبيرة نحو الشرق، يتخذ مساره جنوبًا إلى القرنة، حيث يلتقي بمياه الفرات ليكوِّنا معًا مصبَّ شطِّ العرب. وما يزال موضع جدل متى حدث هذا التحوُّل في مجرى النهر، إذ لا تتوفَّر لدينا أدلة مباشرة على تاريخ وقوعه؛ إلا أنَّ هذا التغير وقع بلا شك بصورة تدريجية، ويرجَّح أن يكون قد تمَّ في القرن السادس عشر للميلاد. على أنَّ المجرى الغربي، الذي يمرُّ بواسط، ظلَّ ممتلئًا بالمياه حتى منتصف القرن الخامس عشر للميلاد. وقد وَصَفَته بوضوح جميع مصادرنا العربية والفارسية في العصور الوسطى، ونكتفي هنا بذكر المتأخرين منهم: «حمد الله» المتوفّى عام ١٣٣٠م، و«علي يزدي» مؤرّخ حملات تيمور الذي استولى على واسط «على نهر دجلة» سنة ١٣٩٣م، وكذلك «حافظ أبرو» حوالي سنة ١٤٢٠م. ولا بُدَّ أنَّ التغيّر قد وقع بعد ذلك، إذ إنَّ مصدرنا التالي بعد أكثر من قرنين من الزمان هو الرحّالة الفرنسي «تافرنييه» Tavernier. فبعد زيارته بغداد في شُباط (فبراير) ١٦٥٢، وصف رحلته نزولًا مع دجلة، الذي قال إنّه ينقسم، على مسافةٍ ما أسفل المدينة، إلى فرعين يحيطان بجزيرة كبيرة تجتازها قنوات صغيرة عديدة. وكان المجرى الغربي (المسار الأقدم عبر واسط) قد أصبح على ما يبدو غير صالح للملاحة، ولذلك لم يسلكه «تافرنييه»، بل وصف النهر في تلك المنطقة بأنَّه يجري «نحو طرف بلاد ما بين النهرين». وقد سلك الرحّالة الفرنسي بالمركب المجرى الشرقي (الحالي)، الذي كان يمتد «على طول أرض بابل القديمة». وقد استغرقت رحلته عشرة أيام من بغداد إلى البصرة، وبعد تجاوزه (الكوت – العمارة) وهي حصن مبني من الطين ـ ذكر قرى سطرات، ومنصوري، والمجر، وگزار، حتى وصل إلى الگرنة (القرنة) «حيث يلتقي الفرات بدجلة» (تافرنييه، جـ ١، ص ٢٤٠). إذن، من الواضح أنَّ دجلة ظلَّ يتبع مجراه الحالي من الكوت – العمارة إلى القرنة منذ منتصف القرن السابع عشر، بعد أن بدأ بالتحوُّل عن مجرى واسط الذي كان يشغله في العصور الوسطى، وذلك في فترة ما بعد ١٤٢٠م. ومن

وقد قام المنصور برحلات عديدة بحثًا عن موقع لعاصمته الجديدة، متنقلًا ببطء على ضفاف دجلة من جرجرايا إلى الموصل. وقد طُرح أولًا موقع قرب «بريما» أسفل الموصل، حيث يشقُّ نهر دجلة جبال حمرين، لكنَّ الخليفة عدَلَ عن هذا الخيار، قيل بسبب غلاء المعيشة وندرة المؤن هناك. وأخيرًا استقرَّ اختياره على قريةٍ صغيرة تُدعى «بَغدَاد» على الضفة الغربية لدجلة، فوق مصبِّ نهر «الصراط أو الصراة» مباشرة، وهناك في عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م شرع المنصور في وضع أُسس مدينته الجديدة.

وفي الكشف الذي أجراه السير «هنري راولنسون» سنة ١٨٤٨، حين انحسر الماء في موسمِ جفافٍ استثنائي، عُثر على جدار طويل مبني بالآجر البابلي يواجه ضفة دجلة الغربية في بَغدَاد، تبيَّن على وجه اليقين أنَّ في هذا الموقع كانت هناك مدينة موغلة في القِدم. فكلُّ لبنة من هذه اللبنات مختومة باسم «نبوخذ نصَّر» وألقابه، وقد تبيَّن فيما بعد أنَّه في الفهارس الجغرافية الآشورية العائدة إلى عهد «سردانا بالوس» يردُ اسمٌ شديد الشبه ببَغدَاد، وهو ما يُرجَّح أنَّه يشير إلى بلدةٍ كانت قائمة حينذاك في الموقع الذي شُيِّدت فيه لاحقًا عاصمة الخُلَفَاء.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ اسم بَغدَاد بصيغته الحديثة يُفترض أن يكون ذا أصلٍ فارسي، إذ يذكر ياقوت الحموي وسائر المصادر العربية اشتقاقات مختلفة متخيَّلة. فكلمة «باغ» في الفارسية تعني «حديقة»، ويقال إنَّ المدينة حملت اسم حديقة رجل يُدعى «داد» أو «دادويه»؛ أو أنَّ «باغ» كان اسم صنم، و«داد» تعني «المعطى» أو «الهبة»، فيكون معنى اسم البلدة «هبة الصنم باغ». ولهذا السبب، قال بعض المسلمين الأتقياء: إنَّ الخليفة المنصور غيَّر اسمها إلى «مدينة السلام». وكان هذا الاسم الأخير هو الاسم الرسمي للعاصمة في عهد الخلافة، وبهذا الشكل ظهر اسم «مدينة السلام» على النقود التي ضربها العباسيون. غير أنَّ الاسم الأقدم، بَغدَاد، ظلَّ مستعملًا وشائعًا في الاستخدام اليومي، وحافظ على سيادته، كما أنَّ المعاجم الجغرافية تذكر عددًا من الصيغ المتنوعة للاسم في الكتابة، وكلُّها أشكال فارسية أو قديمة، مثل: بَغدَاد، بغذان، مغداد، مغذاذ، مغذان.

ومن مرثية أوردها الطبري عن الخراب الذي أصاب بَغدَاد أثناء الحصار الكبير في عهد الخليفة الأمين، يظهر أنَّ نُطق "بَغدَاد" كانت آنذاك تُمثِّل الاسم القديم للمدينة في العصر الساساني، في مقابل اسم بَغدَاد في عهد المسلمين.

ويبدو أنَّ أصل الاسم يرجع إلى كلمتين فارسيتين قديمتين هما باغ أي «إله»، وداد أي «أسَّس» أو «أساس»، ومن ثمّ يكون معنى بَغدَاد: «المدينة التي أسسها الله».

وكان النصفُ الغربي من بَغدَاد في العهد الإسلامي يُعرف أيضًا باسم «الزوراء»، أي «المُنعطِف» أو «المُعوج»، في إشارة، كما يُقال، إلى أنَّ اتجاه القبلة (أي الاتجاه نحو مكة) لم يكن يتوافق هنا على نحو دقيق مع أيٍّ من الجهات الأربع الأساسية للبوصلة. وهناك تفسير آخر يذكر أنَّ بَغدَاد اكتسبت اسم «الزوراء» من نهر دجلة نفسه، إذ كان «منعطفًا» عند مروره بالمدينة؛ بينما يُقال إنَّ بَغدَاد الشرقية كانت تُعرف باسم «الرَّوحاء» أي

اللافت أيضًا أنَّ هذا المجرى الشرقي الحالي، الممتد من العمارة إلى القرنة، هو نفسه الذي سلكه دجلة في الأيام السابقة للإسلام، أي في العصر الساساني، كما أشرتُ سابقًا في تعليق على ترجمتي «لابن سرافيون» مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، ١٨٩٥، ص ٣٠١.

«الواسعة الانتشار» أو «الضحلة»، بسبب موقعها عند انعطاف مجرى النهر. ويضيف المَسعودي عند ذكره لهذين الاسمين أنَّ «الزوراء“ و«الرّوحاء» كانا شائعين بين الناس في عصره.

ومما يجدر التنويه به أنَّ الصيغة النحوية لهذين الاسمين عربية، غير أنَّ التفسير المعطى لاستعمالهما ليس مقنعًا في أيٍّ من الحالين. ومن اللافت أنَّ الجغرافي الفارسي «حمد الله»، الذي كتب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، يشير إلى أنَّ العرب كانوا يطلقون دائمًا على بَغدَاد اسم «مدينة السلام»، بينما كان الفرس يفضّلون تسميتها «الزوراء». وهذا يوحي بأنَّ الكلمة العربية «الزوراء» قد تكون في الأصل صيغة بقيت من اسم إيراني قديم طواه النسيان منذ زمن بعيد.

وأثناء الحقبة الأخيرة من الدولة الساسانية، كانت بَغدَادُ الفارسية، الواقعة على الضفة الغربية لدجلة، بلدة مُزدهرة، وكان يُقام فيها في زمن الفتح الإسلاميّ سوقٌ شهري. وقد ذاعت شهرتها بسبب الغارة الناجحة التي كانت مسرحًا لها. ففي خلافة أبي بكر، وبعد أن تقدَّم خالد بن الوليد، قائد الجيش العربي، مسافة داخل بلاد ما بين النهرين، أرسل فَجأةً قوة عسكرية لمهاجمة «سوقِ بَغدَاد»، كما كان يُسمّى السوق القائم عند موضعٍ يُعرف بنقطةِ «الصِّراط». وقد باغت المغيرون البلدة، «فملأ المسلمون أيديهم بالذهب والفضة، وحصلوا كذلك على ما استطاعوا حملَه من الغنائم»، ثمَّ عادوا سريعًا إلى الأنبار على الفرات حيث كان خالد يُعسكر.

وبعد هذه الحادثة التي وقعت سنة ١٣هـ (الموافق ٦٣٤م)، لم ترد لبَغدَاد أيّة إشارة أخرى في التاريخ حتى عهد الخليفة المنصور، الذي نزل بها سنة ١٤٥هـ (الموافق ٧٦٢م) وهو يبحث عن موقع لتشييد العاصمة الجديدة. ويُروى أنَّ المكان كان يومها مشغولًا بعدد من الأديرة التابعة للرهبان النساطرة، ومنهم عَلِمَ المنصور أنَّ هذه المنطقة بالذات، مقارنةً بسائر أراضي دجلة، كانت مشهورة بكونها خالية من آفة البعوض، وأنَّ لياليها كانت باردةً لطيفة حتى في ذروة الصيف. ومثل هذه المزايا الثانوية لم تكن بلا تأثير في قرار المنصورِ النهائي باختيار هذا الموضع ليكون مقرَّ العاصمة الجديدة للعباسيّين في العراق. غير أنَّ بُعد نظر الخليفة العملي أثبته التاريخ اللاحق لبَغدَاد، فقد نشأت هذه المدينة وكأنَّها وُجِدت بعصا ساحر، لتصبحَ المدينة الثانية بعد القسطنطينية في حجمها في العصور الوسطى، ولم يكن لبَغدَادَ نظير في الروعة في عموم غربي آسيا، إذ غدت على الفور وبقيت لقرون لاحقة عاصمةً لبلاد ما بين النهرين. فالحروبُ والحصاراتُ، بل حتى نقل مقر الخلافة لفترة إلى سامرّاء(٥) (أعلى نهر دجلة)، أو التدمير شبه الكامل للمدينة على أيدي المغول سنة ١٢٥٨م،

---

(٥) لقد كانت هذه المدينة (سامرّاء) مزدهرة منذ عهد الملوك الساسانيين، وكان اسمها يُكتب بالآرامية أو السريانية سامرّا. وقد أصبحت عاصمة للعباسيين في عهد الخليفة المعتصم، ومن السنة ٢٢١ إلى ٢٧٩هـ (٨٣٦–٨٩٢ م) أقام فيها سبعة من الخلفاء، وقد غُيّر اسمها رسميًا إلى سُرَّ مَن رأى، أي: «مَن يراها يُسَرُّ»، وبهذا الاسم ظهرت على النقود التي ضربها العباسيون بدءًا من عهد المعتصم. وقد أورد ابن خلِّكان ستَّ طرقٍ لنطق هذا الاسم، بينما ياقوت ذكر عددًا من الاشتقاقات المتخيّلة، لكنَّه أثبت النطق «سامرّاء» في مقدمة مادته في معجم البلدان. أمّا الطبري وسائر المؤلفين الأقدمين فقد كتبوا الاسم دائمًا بصيغة «سُرَّ مَن رأى»، إلا أنَّ هذه الصيغة يبدو أنَّها لم تُستعمل إلا رسميًا. المراجع: ياقوت، جـ ٣، ص ١٤؛ هوفمان، ص ١٨٨؛ ابن خلِّكان، رقم ٨، ص ١٥.

لم تؤثّر بأي حــال على مكانة بَغدَاد كعاصمة لبلاد دجلة والفرات. وحتى بعد مضي أكثر من أحد عشر قرنًا، ظلَّ الوالي العثماني لبلاد ما بين النهرين يقيم في المدينة التي أسَّسها الخليفة المنصور.

ويروي المؤرّخ الطبري أنَّ نبوءة وُجدت في كتب قديمة للمسـيحيين الرهبان، تنبـأت بظهور مدينة عظيمة ستُبنى مع مرور الزمن بين نهر دجلة وقناة الصِّراط، على يد رجل يُدعى «مِقلاص». وحين سمع الخليفة المنصور بهذه النبوءة شجَّع قومه قائلًا لهم إنَّ هذا الاسم نفسه قد أُطلق عليه في صغره من قِبل مرضعتــه. أما «مِقلاص» الحقيقــي، فقد كان لصًّا مشــهورًا في ذلك العصر، وقد اكتسب الأمير الصغير هذا اللقب منــذ طفولته حين أقدم على سرقة مغزلِ مُرضعتــه وباع الخيط المســتخرج منه ليقيم بثمنه وليمة دعا إليها جميع رفاقه ليشاركوه الاحتفال.

إنَّ المزايــا العديــدة لموقع بَغدَاد موضوع طالما توسَّــع فيــه الجغرافيــون والمؤرخــون المســلمون بمحبــة. فالمقــدسي، على ســبيل المثــال، يذكــر أنَّ الخليفــة أخذ برأي أولئــك الذين كانــت لهم خبرة بالعيش هنا صيفًا وشــتاءً، وقــد أجمعوا على الثناء عليها. وقد لخَّص ذلك الجغرافي قائلًا، فيما نُقل أنَّه وُجِّه إلى المنصور:

«إنَّنــا نــرى أنَّ تُنشــئ المدينــة هنا بــين أربعة أقاليم: بوق وكلواذا عــلى الضفة الشرقية، وقطربل وبادوريــا عــلى الضفة الغربية. وبذلــك تعيش بين النخيل والماء، حتــى إذا قصَّر إقليم ما في محاصيله أو تأخــر حصــاده، وجد العــلاج في إقليم آخر. كما أنَّ مدينتك لكونها على نهر الصَّرَاط ســتُجلب إليها المؤن بســفنِ الفرات، وبالقوافل عبر السهول حتى مــن مصر والشــام. ومن هنا ســيأتيك عــبر البحر بضائع الصين، بينمــا تُحمل عبر دجلة من الموصل ســلع الأراضي البيزنطية. وهكذا ســتكون مدينتك قائمة بأمان بين كلِّ هذه المجاري المائية، ولن يصل إليك عــدو إلا إذا جاءك بســفينة أو عبر جسر فوق دجلة أو الفرات»[٦].

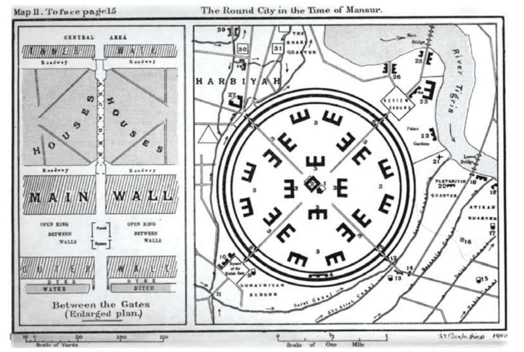

المدينة المدورة في زمن المنصور

المواقع التي ظهرت في خريطة المدينة المدورة رقم:(٢)

١. جامع المنصور.
٢. قصر الباب الذهبي مع الرواقين المقابلين لباب الشام.
٣. مختلف الدوائر العامة، وهي: بيت المال (الخزانة)، دار السلاح، الديوان، دار الخراج، المخبز العام، ديوان الرواتب، ديوان حاجب الخليفة، وقصور أبناء الخليفة الأصغر سنًا.
٤. السجن المعروف بالمطبخ.
٥. باب البصرة.

(٦) البــلاذري، ص ٢٤٦؛ الطــبري، ج ٣، ص ٢٧٤، ٢٧٦؛ المقــدسي، ص ١١٩. وقد رويت قصــة «مِقلاص» أيضًا، مع بعض الإضافات، في ياقوت، ج ١، ص ٦٨؛ كما يمكن العثور عــلى ملخص آخر لمزايا الموقــع في الطبري، ج ٣، ص ٢٧٥، حيث نُســب هذا الخطاب في هــذه الرواية إلى «الصاحب» أو «أمير الناحية» في بغداد.

٦. باب خراسان.

٧. باب الشام.

٨. باب الكوفة.

٩. جامع مسيّب.

١. دار البوّابين، ديوان الصدقة (ديوان ضريبة الفقراء). الإسطبلات ودار الجمال.

٢. الجسر القديم.

٣. الجسر الجديد.

٤. قصر ومسجد وضّاح.

٥. قوس الحَرّاني.

٦. جامع محلة الشرقية.

٧. قبر معروف الكرخي.

٨. مشهد الإمام علي، ويُعرف بمشهد المنطقة.

٩. دار الجوز.

١٠. قصر حُميد بن عبد الحميد وباب الشعير.

١١. قصر عَضُد الدين الوزير.

١٢. الدير القديم عند موضع الصِّراط.

١٣. قصر الكَرار لزُبيدة.

١٤. قصر الخُلد.

١٥. الإسطبلات الملكية.

١٦. ديوان أعمال الجسور وقاعة رئيس الشرطة.

١٧. قصور الأميرين سليمان وصالح.

١٨. سجن باب الشام.

١٩. قصر سعيد الخطيب ومدرسة الأيتام.

٢٠. دكّان الأبناء (الحوانيت الفارسية).

٢١. فناء الفرس.

٢٢. فناء شَبيب.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الفرات: مخطوط في مكتبة الفاتيكان، رقم ٧٢٦ عربي، فهرس المخطوطات الشرقية بمكتبة الفاتيكان، نشر أنجلو مايو، روما، ١٨٣١.
- ابن بطوطة: الرحلة، النص العربي مع ترجمة فرنسية بقلم ديفريمري. ٦ مجلدات، باريس، ١٨٧٧.
- ابن حوقل: تحقيق م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٧٣.
- ابن رسته: تحقيق م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٩٢.
- ابن سِرابيون: مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٨٩٥ (أعداد يناير وأبريل وأكتوبر)، «وصف بلاد ما بين النهرين وبغداد»، تحقيق وترجمة غاي لو سترانج. لندن، ١٨٩٥.
- ابن قتيبة: التاريخ، تحقيق ف. ويستنفلد. غوتنغن، ١٨٥٠.
- ابن مسكويه: نشره م. ي. دي خويه في مقتطفات من المؤرخين العرب .ليدن، ١٨٧١.
- أبو الفداء: الجغرافيا .النص العربي، تحقيق رينو ودي سلان. باريس، ١٨٤٠.
- الاصطخري: تحقيق م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٧٠.
- بارسونز، أ: رحلات .لندن، ١٨٠٨.

- البلاذري: تحقيق م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٨٦.
- تافرنييه، ج. ب: الأسفار الستة .أوترخت، ١٧١٢.
- جونز، القائد فليكس: تقرير ضمن سجلات حكومة بومباي، رقمXLIII ، السلسلة الجديدة. بومباي، ١٨٥٧. ويتضمن التقرير مخططاً كبيراً لبغداد الحديثة وعدة خرائط للبلاد المحيطة.
- حمد الله: تاريخ گزيده (التاريخ المختار)، مخطوط، يُستشهد به بحسب الأقسام وعهود الخلفاء.
- حمد الله: نزهة القلوب (الجغرافيا) .القسم المتعلق ببغداد مطبوع بقلم شيفر في ملحق «سياست نامه». باريس، ١٨٩٧. وقد طُبع النص الكامل لـ«نزهة القلوب» بالحجر في بومباي سنة ١٣١١هـ (١٨٩٤م). وتوجد مخطوطات جيدة من «گزيده» و«نزهة» في المكتبة البريطانية وفي المكتبة الوطنية بباريس.
- الخاقاني: تحفة العراقَين، مطبوعة بالحجر سنة ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م).
- الخطيب: تاريخ بغداد .الإحالات إلى المخطوط بالمكتبة البريطانية، رقم Or. ١٥٠٧ وتوجد مخطوطات أخرى لهذا الكتاب المهم - الذي لم يُطبع قط - في المكتبة البريطانية وفي المكتبة الوطنية بفرنسا.
- دوزي، ر: تكملة المعاجم العربية .مجلدان، ليدن، ١٨٨١.
- راولينسون، السير هـ. ك: مقالة «بغداد» في الطبعة التاسعة من الموسوعة البريطانية.
- رحلات ماركو بولو، الطبعة الثانية. مجلدان، لندن، ١٨٧٥.
- الطبري: التاريخ، نُشر في ثلاثة أقسام وثلاثة عشر مجلداً، بإشراف م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٩٠.
- طبقات ناصري، لمنهاج الدين. طُبع النص الفارسي في كلكتا سنة ١٨٦٤، ونُشرت ترجمة إنجليزية بقلم الميجر هـ. غ. رافرتي في «بيبليوثيكا إنديكا»، ١٨٨١.
- عريب بن سعد القرطبي: ذيل تاريخ الطبري، نشره م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٩٧.
- القزويني: آثار البلاد، تحقيق ف. ويستنفلد (المجلد الثاني من كتاب «الآثار الكونية»). غوتنغن، ١٨٤٨.
- كتاب العيون، في «مقتطفات من المؤرخين العرب»، م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٧١.
- كتاب الفهرست، تحقيق غ. فليغل. لايبزيغ، ١٨٧١.
- كريمر، أ. فون : تاريخ حضارة الشرق في عهد الخلفاء .مجلدان، فيينا، ١٨٧٥.
- المراصد: مختصر معجم ياقوت الجغرافي الكبير، المسمى مراصد الاطلاع، تحقيق ت. غ. يوينبول. ٦ مجلدات، ليدن، ١٨٥٢.
- ميرخواند: روضة الصفا، مطبوعة بالحجر في مجلدين (فوليو)، بومباي، ١٢٦٦هـ (١٨٥٠م).
- نيبور، ك: رحلة إلى بلاد العرب .أمستردام، ١٧٧٦ و١٧٨٦.
- ياقوت: معجم البلدان، تحقيق ف. ويستنفلد. ٥ مجلدات، لايبزيغ، ١٨٦٦.
- اليعقوبي: الجغرافيا، تحقيق م. ي. دي خويه. ليدن، ١٨٩٢.
- يول، الكولونيل هنري: كاثي والطريق إليها، منشورات جمعية هاكليوت، ١٨٦٦.